تراتيل الطبيعة

ديوان في وصف الطبيعة

حين تبوح الطبيعة- تصت الأرواح-

يمينة زمال

ديـــــــوان :
تراتيـــل الطّبيـــــعة

الشّـــاعرة : زمّـــال يمـــينة

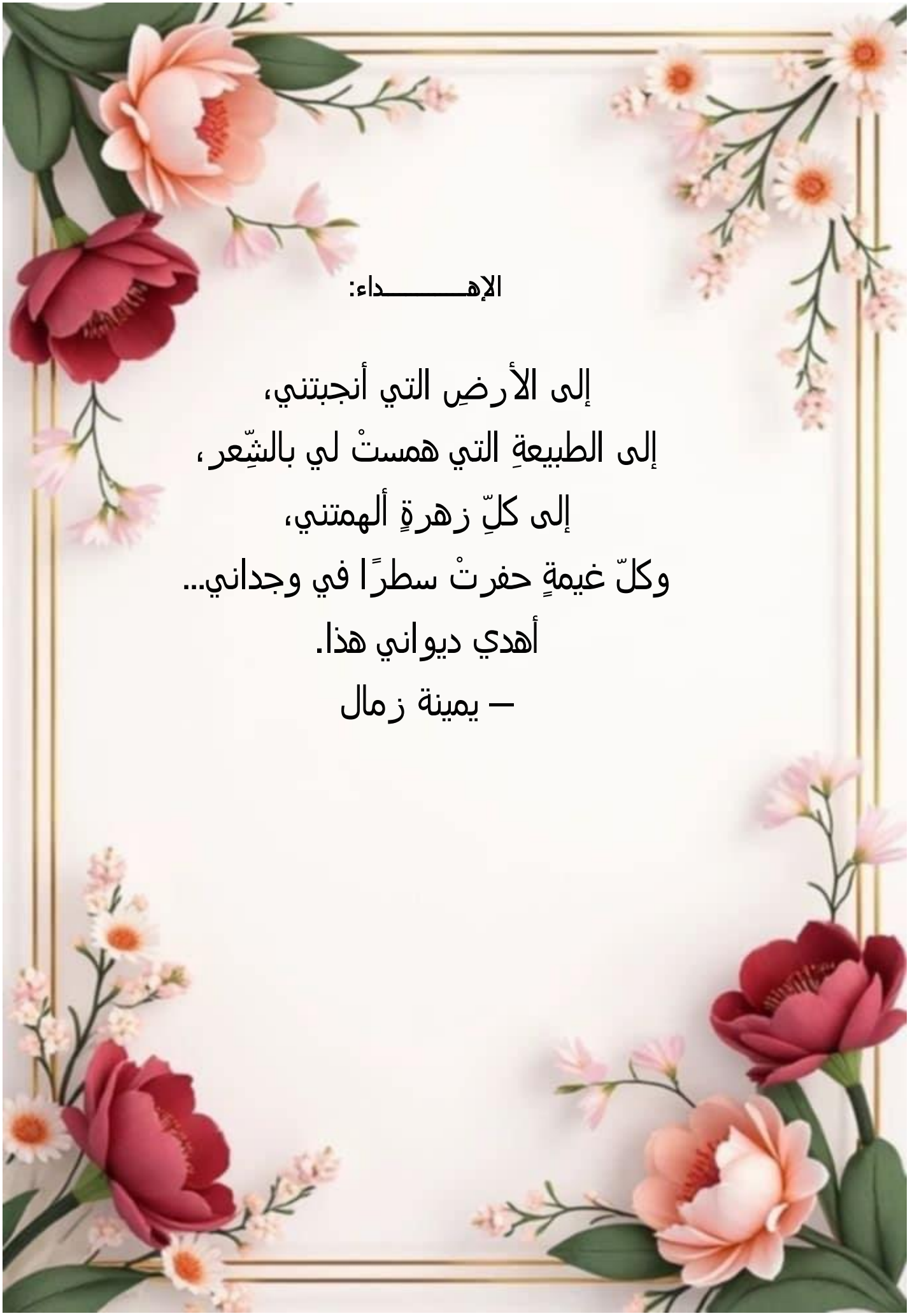

الإهـــــــــداء:

إلى الأرضِ التي أنجبتني،
إلى الطبيعةِ التي همستْ لي بالشِّعر،
إلى كلِّ زهرةٍ ألهمتني،
وكلّ غيمةٍ حفرتْ سطرًا في وجداني...
أهدي ديواني هذا.
– يمينة زمال

مقدمة الديوان:

في هذا الديوان، "تراتيل الطبيعة"، تغنّت يمينة زمال بجمال الأرض، بنبض الندى، وبهمس السواقي، وانسياب المطر، وروح النخيل، وهمسات الأوراق.

كل قصيدة، وإن انطلقت من مشهد طبيعي، كانت ترتيلًا داخليًّا، ينشد الذات في تجلياتها الشفيفة.

قصائد هذا الديوان، مبنية على العمود الشعري الكلاسيكي، تحافظ على الوزن والقافية، لكنها تنبضُ بروحٍ حديثة، تأملية، وجدانية، تغزل الجمال والوفاء في كل بيت.

القصيدة الأولى: أنشودة المطر

يا مطرًا هامسًا في صدرِ سَمْتِ الرُّبى ... كأنّما أنتَ وَحيُ اللهِ في السُّحُبِ

يا قارعَ البابِ للأنواءِ مُبتهجًا ... تُهدي البذورَ ارتواءَ الحُبِّ والطَّلَبِ

جئْتَ الرحيلَ على أنغامِ نافذةٍ ... تَرقى بكفِّ الدُّعاءِ الطّاهرِ العَذِبِ

تَغسلُ وجهي من الأحزانِ مُبتسمًا ... كأنك السِّحرُ من أوتارِ مُغتَرِبِ

أصغي إليك، فأشدو دونما وَتَرٍ ... ويخجلُ الحرفُ من تمثالِكَ الذَّهَبِ

تمضي السواقي إليكَ الآنَ عاشقةً ... وفي خطاكَ تنامُ الأرضُ عن نَصَبِ

رعدُك إن غَضِبَتْ أعماقُهُ سَكِرَتْ ... تغدو الحكايا رؤى في حلمِ مُنْتَشِبِ

كأنّ في صَوتِك الأجدادُ قد نَطَقُوا ... وفي اشتياقِكَ صوتُ الجدِّ والحَسَبِ

تَسقي الجبالَ نُبوءاتٍ مُخَلَّدَةً ... وتُنبتُ العشبَ من أسرارِك العَجَبِ

ما أبهجَ الغيمَ إن زفّ الرحيلَ دُمىً ... تغفو على ظلِّكَ المنثورِ في الكُتُبِ

كم كنتَ تجري بأشواقٍ مُعلّقةٍ ... بينَ الطفولةِ والأنواءِ والشُّهُبِ

وكم أتيتَ إلى الأعشابِ تبسمُها ... رُغمَ التّعَب، كأنّ البَذرَ لم يَتِبِ

تَرنو إليكَ الحقولُ الآنَ مُنشدةً ... وفي الترابِ تُصَلّي طلعةَ السُّحُبِ

يا مطرًا علّقَ الأرواحَ في ولهٍ ... وساقَنا نحوَ حُبٍّ غيرِ مُنْتَسِبِ

يا مَن تَزورُ قلوبَ الناسِ مُبتَهجًا ... وتَغسلُ الهمَّ عن روحٍ بلا سببِ

أنتَ البدايةُ في دفءِ النّدى، ولهُ كأنّ في قطرِكَ المكنونِ من كُتُبِ

أنتَ الخلودُ الذي إن مرَّ بالأرضِ، أعطاها سِرَّ حكاياتٍ من العَجَبِ

تبكي الغيومُ ويَبكي وجهُها حَفَلاً فوقَ المدى، وتغنّي نشوةَ الطَّرَبِ

إنّي كتبتُكَ أشعارًا مُلوّنةً من كلّ ضوءٍ على عينيكَ مُنْسَكِبِ

وها أنا الآنَ، في قُربِ السحابِ، أنا عاشقةٌ، كلّ ما في الدربِ من كَتَبِ

القصيدة الثانية: عِناقُ الغروب

يا فِتنَةَ الغربِ، ما أغلاكِ مـن سُدُفِ ... فيكِ ارتحالُ المدى، والسرُّ في الطُّرَفِ

تَغفو الشمـوسُ على الأكتافِ مُعتذِرًا ... وتَرتـدي الأرضُ حُلْـمًا غيرَ مُنعَطِفِ

في هــدأةِ اللــونِ، أســرارٌ مُبَوَّبـةٌ ... كأنّــها حِكمــةُ الآياتِ في الصُّـحُفِ

يَحـبو السـكونُ على الأنهارِ مُنبهرًا ... ويَحضــنُ الضوءَ في خَفرٍ وفي كَلَفِ

والأفــقُ يرســمُ مـن أنفاسـهِ قُبَـلًا ... تَــذوبُ في الخــدِّ، لا نُكـرانَ للّطَفِ

يا نَغـمةَ الليـلِ، لا تُطـفِئ نوارسَهُ ... فكــلّ مــوجٍ يُنــادي بالهوى الدَّنِفِ

والنجــمُ يُلثـمُ خـدَّ الغــيمِ مُبتسمًا ... كأنّــهُ عاشــقٌ يَــزهو بــلا سَلَـفِ

صــوتُ الغــروبِ تراتيـلٌ مُعطّرةٌ ... تَجــري علـى شَفَـةِ التاريخِ والرَّصَفِ

كم من قصائدَ ناحتْ في مَداهُ سُهًى ... وكــم ترقّبَــهُ في البُــعدِ مـن أَلِـفِ

يا آخرَ الضوءِ، هل تَهدي خواطرَنا ... نحو التجــلّي، فنــرنو دونـما كَلَفِ؟

فــيكِ الطمأنينــةُ الكبرى مُهدهَدَةٌ ... وفيــكِ ترتيــلُ أرواحٍ مــن السَّـلَفِ

ما بيــنَ ظِلِّــكِ والأشجــارِ أمنيــةٌ ... وفي انكســارِ الضياءِ الشعرُ مُعْتَكِفِ

العشــبُ يَحني على أهدابِهِ خَجَلًا ... من طلعــةِ اللونِ فوقَ الجفنِ والألَفِ

والريــحُ تشــدو بأشــواقٍ مُدلّلــةٍ ... كأنّــها وتــرٌ في قلــبِ مُنْصَــرِفِ

كُـلّ الغـيومِ إذا عــانَتكِ مُبتَسِمَةً ... أهدَتــكِ ســرَّ الحنينِ المُشبَعِ الشّغَفِ

يا وجنـــةَ الكــونِ، يا أُفقًــا نُرَتّلهُ في خُشْعَةِ الصمتِ، لا في ضوضءِ الهَتَفِ

هذا الـغروبُ لنا معــراجُ ذاكــرةٍ نَصعــدُ الضــوءَ فيـــهِ دونمـا سَنَفِ

والحبُّ في لحظةِ التكوينِ مُنسَكِبٌ ما بينَ رَمشـــةِ عيــنٍ أو شذى طَرَفِ

غــابَ النـــهارُ ولكــن زادَنا أملًا أنّ الغــروبَ يُنـــادي بالضِّيــاءِ خَلَفِ

فاستقبلي الليلَ في أحضانِ قافيتي واكتــبي فَجْــرَكِ من أعمــاقِ مُعتَرَفِ

القصيدة الثّالثة: رُواءُ الربيع

رُواءُ رَبيـعٍ تنفَّسَ في المـدى طَرِبـا ... فأزهَـرَ الكـونُ مـن أنفـاسِهِ العَجِبا

تَراقَصَتْ في ضُحاهُ الأرضُ مُبتهِجًا ... كأنـها استقبلـتْ في لَـونِـهِ النُّجُـبا

وتـاهَ زهـرُ الرُّبـا في عِـزٍّ فتنتهِ ... يُهدي المدى قُبلًا لا تعـرفُ التَّعِبا

يا رَوضَـةَ العشقِ، يا نشوانَ أغنيةٍ ... سَـكرى بألوانِـها، والحُسنُ قد كَتَبا

رأيـتُ فيـكِ نُبـوءَاتٍ ملوَّنـةً ... تَجـري كحـلمٍ، وتُغري الخَطوَ والشُّهُبا

كلُّ الغصـونِ غـدتْ قيثـارةً فرِحًا ... تشـدو الرّيـاضُ بهـا دُررًا ومـنتَخَبا

والطيرُ يشدو على الأغصانِ مُعْتنقًا ... نبـضَ الحياةِ، ويُهدي الحبَّ ما طَرَبا

يا منبـعَ البَسمةِ العـذراءِ في نَسقٍ ... كـم أزهـرتْ فـيكَ أرواحٌ ومـا غَـرِبا

كلُّ البراعـمِ في تَغريـدِهـا وَلَـهٌ ... تَسـري كأنفـاسِ وجـدٍ ذابَ وانسَكَبا

أنتَ الشُّعاعُ الذي في الحقلِ مَنبَتُهُ ... والعِطـرُ من سَكَنـاتِ الزهرِ قد خُطِبا

هل قُلتَ للضوءِ أن يُهديكَ طلعتهُ؟ ... أم كنتَ مِثلَ الدُّجى يخشى إذا اقتَرَبا؟

النـاسُ فيكَ صغـارٌ من دهَشتِهِم ... حتى الجـليـلُ إذا لاقـاكَ قـد هَـضَبا

والماءُ في جَدوَلٍ رقصَـتْ نَسائِمُهُ ... من فَرطِ حُسنِكَ، لم يُخفِ الذي نَهَبا

ما أجمـلكْ! لوحـةٌ سكرى بألوانٍ ... كأنّـمـا اللهُ في طـيـفِ الرُّبـا كَتَبـا

هذا الجمالُ، ومن يُخفي شذاهُ سُدًى؟ ... أمسى يتيـهُ، ويغدو الحُسنُ مُنْتَصِبا

لا تُخجلي الزّهرَ ، فالألوانُ خافقةٌ تَهدي الخيالَ، وتُبقي الوصلَ مُغتَصَبا

أرنــو إليـكِ، وفي عيــنيَّ قافيةٌ مــن شـدوِ طيـرٍ ، وأوزانٍ لهـا طَرِبــا

أهواكِ يا موسمَ الأرواحِ إن بَرَقَتْ فيــك الحقيقــةُ، والأحــلامُ قـد ذَهَبـا

ربيــعُ قلبي إذا ما لامسَتــكِ دنا من اليقيــنِ، ونــادى الحُـسنَ مُحتَسِبا

فاكتبْ وجودَكَ في أعماقِ مُذْهَلَةٍ ما بيــنَ طلعتِـكَ البيضــاءِ والذَّهَبــا

القصيدة: جلالُ الجبال

يا جَبلَ الحُلمِ، ما أسرى مَهابَتُكَ ... تُهدي السّماءَ سُكونًا فوقَ قِمّتِكَ

ترنو إليكَ العُلى، في صَمتِها ذُهُلاً ... وتستبينُ جلالَ اللّفظِ من شِفَتِكَ

كأنّكَ الوَقرُ في أذنيَّ إن نطقتْ ... رُوحُ الوجودِ بسِرٍّ من كرامتِكَ

يا مَن تُعلّمُ هذي الأرضَ وقفتَها ... وتَفْتَحُ المجدَ بالتاريخِ مِن جِهَتِكَ

صخرُكَ الصَّلبُ لا يَهوي على رَغَبٍ ... ولا يُداجِي خُضوعًا في طريقتِكَ

تَحنو على الغيمِ إن طالَ التردُّدُ في ... أعطافِهِ، ثم تهديهِ إلى رُتَبِكَ

ريحُكَ البكرُ كم مرّتْ على سُحُبٍ ... ورفرفتْ من صدى الإصرارِ في نَبَتِكَ

يا شامخًا فَزَّ في الأكوانِ مُنْعَزِلًا ... عن الزّمانِ، يُرَتِّلُ حُرقةَ النَّسَكِ

في صَمتِكَ الأبديِّ الحُرِّ منزلةٌ ... تَختالُ في لُجّةِ الأرواحِ والعَبَقِ

لا البحرُ يَبلغُ آفاقَ الهُدوءِ، ولا ... السّهلُ يَضاهي سُكونَ الضّوءِ في فِتَنِكَ

يا من تجسّدُ في الأطوادِ ملحمةً ... ترقى بها الشمسُ من شُباكَ نَخوتِكَ

كلُّ المدى، كلّ ما في الأفقِ من طَلَلٍ ... يَستندُ اليومَ في شكواهُ من صَمَتِكَ

أنّى خَطَونا، لنا من صخرِكَ اتّسَقَتْ ... خُطى الثّباتِ، وصوتُ العزمِ من نَبَتِكَ

هل كنتَ تُصغي إلى التكوينِ في سَهرٍ؟ ... أم كنتَ تكتمُ أسرارَ العُلا بدَمِكَ؟

رُغمَ السُّكونِ، بصوتِ الرّعدِ تَحتدِمُ ... تلكَ القمَمْ، وتُباهي المجدَ في وَقْعِكَ

تَهـوي الريــاحُ، وتبقى أنتَ منتصبًا ما زَعْزَعَتــها نُــذورُ البَـأسِ في نُدُبِكَ

فكــنْ كمَــا أنــتَ، رمــزًا لا يُدانِيـهِ صوتُ الحُطــامِ، ولا آهــاتُ مُنْتَكِبِ

يا أيــها الجبــلُ الســاري بلا وَجَـلٍ ما زالَ في صمتِـكَ العالي من النّسَبِ

سلامُ مَن عانقَ الجوزاءَ في شَغفٍ وأورثَ الدهــرَ عــزًّا مــن صلابتِـكَ

تبــقى الجبــالُ جِـلالًا لا يُساوِرُهُ شــكُّ الحــروفِ، ولا تَهفو إلى رُتَبِكَ

القصيدة الخامسة: ظلّ الشجرة

ظلُّ الشجرةْ، يا هدوءَ الأرضِ في نَفَسي ... ويا نـعيمَ الفـتى إنْ ضـاقَ باليَـبَـسِ

تمشي الظـلالُ على جفنيكَ ناعمـةً ... كأنّهـا نَـغَـمٌ من فجـرِ مُنْتَـعِـسِ

ما بيـن أفنانِـكِ الخُضـراءِ أغنيةٌ ... وفي الدُّجى أنتِ ضـوءُ القلـبِ والنَّفَسِ

أهيـمُ في ظلّكِ الساري، فأجمعني ... من الشُّتـاتِ، وألقي الحرفَ من حَرَسِ

يا سَكَنَـةَ النـورِ في أفيـاءِ ذاكـرةٍ ... كم قد حملتِ على الأغصانِ من عُرُسِ

ما كنـتِ شجـراً، بـل كنتِ قُبلةَ من ... ظـلِّ الطفـولةِ، مـن سِـرٍّ ومن هَمَسِ

تبقيـنَ فينـا مقامَ الحلمِ إن هَجَعَتْ ... أرواحُـنا، أو تنادتْ خفقةُ الجَـرَسِ

تُهـدي السكينـةَ للأرواحِ نـاعـمـةً ... كأنـكِ الـوتـرُ المشتـاقُ للأنـفَـسِ

في حضنكِ النومُ، والإشراقُ، والدفـءُ، ... والشعرُ إنْ ذابَ في الأنغـامِ والرَّسَـسِ

تَغـفو الطيـورُ على أكتـافِكِ مُتْكِـئًا ... وتستـريحُ المـدى مـن همّها اليَئِسِ

أنـتِ البدايـةُ في سفـرِ التأمّلِ، لا ... ريـحٌ تهـدّدُكِ، أو بـرقٌ من الفَـلَسِ

يا ظلُّ، يا ومضةً سكرى على شَجَرٍ ... كأنّـها قبلـةٌ للعـمـرِ والنَّـفَـسِ

كـم من يتيـمٍ دعـاكِ الآنَ مُنكسِرًا ... فأطعـمـتِهُ الحـنيـنَ الطيّـبَ الغَرَسِ

يا ظـلَّ شجرتنا الأولى، ويا حُلُمًا ... نسقي بـه وجـعَ الأيّـامِ والْحَـبَـسِ

إن مـرّ صـوتُكِ، نامَ الكوخُ في ولهٍ ... وصـارَ في لحظـةٍ غيمًا على القُفَسِ

مـا ظلُّـــكِ الآنَ إلّا مـا تمنّتـــهُ نفسي، إذا اشتـدّ بي تيــهي ومُنْتَـكَسِي

تبقيــنَ صمــتًا، ولكـن فيه أغنيةٌ من السكــونِ، ومن دمــعٍ، ومن نَفَسِ

وكلّما ارتعشتْ أغصانُكِ ازدهرتْ في الــروحِ أنشـودةٌ من غير ما نَجَسِ

فاحفظي سرّكِ الأخضرْ، ولا تهني عنّـا، فإنّـا غُيــومٌ دونَـكِ الشَّـمَـــسِ

وفيــكِ نختــمُ حلـمًـا كـانَ مبتدأً وفيــكِ نُشــعلُ ما في القلبِ من قُدُسِ

القصيدة السادسة: *رُؤى الغروب*

إذا الغُــروبُ تلألأ في المدى سَحَـرَا ... وَشَــاعَ في الكــونِ أنفاسًــا ومُعتكَــرا

ذابتْ خُطاهُ على الأغصانِ مُنْسَكِبًا ... كأنَّــهُ اللحــنُ يُهــدي القلبَ مُنْتَظَرَا

تَهمي المدى نُسَخًا من نورهِ الوَجِـلِ ... وتَرسُـمُ الـدَّفءَ في الألــوانِ مُفتَخِـرَا

تُصغي الطيورُ لنَايِ الصَّمتِ مُدهشةً ... وتَغــرقُ الأرضُ في أســرارهِ حُصُــرَا

يُملي على الشفقِ المحـزونِ قافيَــةً ... ويَنــسُـجُ الضــوءَ شعـرًا حالِمًــا زُهـرَا

يا منبــعَ الحلـمِ، يا نَفسًــا مُعَطـرَّةً ... يا همسَ روحي إذا ما المسكُ قد عَبَـرَا

تَركتَ في القلبِ إشــراقًــا يُبــعثِرُني ... وسِــرْتَ في خاطري نبــضًا ومُندَفِـرَا!

القصيدة السابعة: مرآة الغيم

مـــرآةُ غيمِـــكِ، يا أنـــقى من الفِكَـرِ ... تَشُـفُّ فيـــكَ رؤًى، تسري على البَشَرِ

كأنّـــكِ الحُلـــمُ، إنْ جـالتْ سحـــابتـــهُ ... على القلوبِ، ففاضَ العشقُ في السُّوَرِ

تُهـــدي المـــدى قممًـا، بيضًا، مكلّلةً ... بمـــا تبـــرقَّـــعَ مـــن أنـــوارِ مـنتَـظَـــرِ

يا غيمَـــةً في عيـــونِ الحقـــلِ نـازلـةً ... كـأنّـــها قُبَـــلٌ تهـفـــو إلـــى الثـــمـــرِ

مرّيتِ فوقي، فـذابَ الوقـتُ مُغتمسًا ... بمـــا تنـــــاثـــرَ مـــن ضـوءٍ ومن عطرِ

تمشيـــنَ مثـــلَ رؤى طفـــلٍ يُغنّيـــهِ ... نسيـــمُ سهـــلٍ، وبـــرقٌ غيـــرُ مُحتَضَرِ

كأنّـــكِ الآيـــةُ البيضـــاءُ حين بدتْ ... بلا حـــروفٍ، ولكـــنْ مَـــسَّـــها القَـدَرُ

فيـــكِ السكينةُ، فيـكِ الهمسُ مكتملٌ ... وفيـــكِ مـا لـم يَقُلْـــهُ الغيـــمُ للبـشـــرِ

يا غيمتي، يا نداءَ الوصلِ إن افترقَتْ ... خطـــايَ، وابتـــلـــعَ الأفـــقَ المُنتظِـرِ

كـم قد كتبتُـكِ في أنـفـاسِ ذاكـرةٍ ... وفي دُجى الخوفِ، كنتِ الأمنَ في السَّفَرِ

تأتيـــنَ، والمـــاءُ في عينيكِ مُتّسعٌ ... كأنّ نـهرَكِ دمـعٌ ســـالَ مـــن قـمـرِ

ومـا الغيـــومُ، سوى طيفٍ أُلاحقُهُ ... وأستـعيـدُ بـــهِ أيّـــامَ مـــن انـدثـــرِ

تبقيـنَ في لـغتي إن ضاقَ بي لغجٌ ... ويسـتقيـمُ بـــكِ الإيقـــاعُ والسَّـــوَرِ

كـم من نشيـــدٍ دعاكِ الآنَ مُرتجفًا ... فاستحضـرتِ لـــه الذكـرى بلا ضـررِ

كأنّـكِ العـرشُ، تجـري فوقهُ لُغتي ... وتـستـــوي فيـــه أنســـامٌ من الحُسُرِ

يا من تعلّقتِ بالأشجـارِ ، وانهمـرتْ قطــراتـكِ العـذبُ، تروي جـذوةَ الخَفَرِ

إن غِبتِ، اختنقتْ في الصدرِ أرغفةٌ مـن الحنينِ، ومـن لوعى، ومـن سهـرِ

وإن أتيتِ، أتتْ كلُّ الفصــولِ معي واسـتبشـرتْ زهــرةٌ في آخــرِ الحُفرِ

يا مـرآةَ الحلــمِ، إنّي فيـكِ مغتسـلٌ من كلّ ما ضيّــعَ الأنفــاسَ في الكدرِ

فامــكثي فوقـنـــــا حــتّى نُردّدَها: كــانـتْ هنــا غيمــةٌ تمشي بـلا وطـرِ

القصيدة الثامنة: أوراق الخريف

أوراقُ خريفٍ تناثَرَ في يدي قدري ... كأنّهُ الحُلمُ إذ ينسابُ في البَصَرِ

تسيرُ ملهوفةً، كالعمرِ منكسراً ... تَحكي الرحيلَ، وتُبكي صفحةَ العُمرِ

في كلّ ورقةِ حزنٍ قد تمزّقَنا ... وشيجةٌ ضاعتِ الأنسامُ في السَّحَرِ

كأنّها وجعٌ مأهولُ ذاكرَتي، ... تمشي وتنسى، ولكنْ يشتكي الجُدُرِ

يا لحظةَ الذّهبِ المتروكِ في تعبٍ ... كم ناحَ لوني، وكم شاختْ دُمى الزَّهَرِ

الخُضرةُ انطفأتْ، والأمنياتُ هوَتْ ... وبَاتَ في الحقلِ أنفاسٌ من الحَفَرِ

يا ورقَ الريحِ، يا نبضًا تمزّقَنا ... وصارَ يسكننا في مَسحةِ الوَتَرِ

تَذوبُ فينا خطى الذكرى، وتَهمسُنا ... أنّا سنرجعُ من أيامنا لِقَصَرِ

لكنّنا نُهملُ المجهولَ، نخدعُهُ ... بأنّنا مثلُ أوراقٍ بلا خَطَرِ

وإن تساقطتِ الأحلامُ عن جسدي ... فليسَ إلاّكَ يبكيني بلا كَدَرِ

خريفُنا لغةٌ أخرى، بها اشتعلتْ ... نيرانُ حرفي، وكانَ الشعرُ في الحُفَرِ

ما كنتُ أرغبُ في نزعِ الغصونِ، ولا ... كنتُ استطيبُ وجوهَ الموتِ في الشَّجَرِ

لكنّني حينَ جاءَ الصمتُ في ورقٍ ... أدركتُ أنّكِ موتٌ ناعمُ الأثَرِ

تبكينَ؟ ما للبكاءِ الآنَ من وجعٍ ... سوى غيابي، ودفني في مدى الغِيَرِ

قد كنتِ تهوينَ دفءَ الصيفِ، فانكسري ... في حجرِ ريحٍ، ونامي في مدى السَّفَرِ

وآنَ للبــردِ أن يشــدو على جسـدي، ويسـتبيـحَ يــديَّ دونَـمـــا عُـــــذُرِ

كـلُّ الفصــولِ تَمُــرّ الآنَ بي عبثًــا وأنــتِ وحـدكِ تبــكينَ الهــوى المُدَرِ

تبقيــنَ، يا وردةً قد شاخـتْ بمفردها، أبـهى الرمــوزِ على أطــلالِ مُنْكَسِـرِ

وإن تمادى الخريفُ الآنَ في شَجَـنٍ، ستــرجعيــنَ ربيعًــا بــاســمَ الصُّوَرِ

ويُــورقُ الجــرحُ، إن مـرّتْ نداوتُكِ، ويستفيـقُ النّــدى مـن نـومــهِ العَسِرِ

القصيدة التاسعة: حوار الغدير

نــاداني الغـديرُ وفي عينـيهِ أغنـيـةٌ ... مـن الصـفاءِ، تُداوي الجرحَ إنْ حَضَرا

سريـتُ نحـوهُ، والقلـبُ مستعـرٌ ... كـأنّـنـي خـفـقـةٌ بـالنورِ قد زَهَرا

قالَ: اقتربي، واسمعي فيّي صدى زمَنٍ ... كـانَ الهـوى فيه عذبًا، لا يُرى خطَرا

فـفي المـرافئِ أسـرارٌ ومـفزعـةٌ ... مـن البـكـاءِ، ومن فقـدٍ، ومن عِبَرا

أنـا الغـديـرُ، وما زالـتْ مرابعي ... تخـفي الحكايـا، وتبكي ظلَّ من عَبَرا

مـرّتْ عليَّ خطى الأحبابِ فانطفأتْ ... كأنّـها لـم تـكنْ إلّا هـوى انفَـجَـرا

وهـا أنا الآنَ وحدي، لا صدى رجَعٌ ... إلّا ارتطـامُ الأسـى بالحـلمِ إنْ كَسَـرا

أنظـرْ إلى مـائي الرقـراقِ، تعرفني ... من انـعكـاسـاتِ مـن قـد زارني وقرى

قـد كنـتُ مـرآةَ آهاتٍ، ومدفأةً ... للحـائرينَ، لمـن جـافى، ومن سَهـرا

تسـاقـطَ الزهرُ في كفيَّ، مُنكسِرًا ... وغـادرَ الطيـرُ أنغـامي، وما اعتذرا

فهـل أراكِ هنـا تبقينَ تهمسُني؟ ... وهـل تُعيدينَ صـوتَ الفرحِ إن نَظَرا؟

قلـتُ: الغـديرُ حبيبي، كنتُ أذكرهُ ... حينَ اشتكى قلبي من وجدي ومن سُهرا

مـا زلـتَ أنتَ، وإن ضاقتْ جهاتُهمُ، ... نقـاءَ هذا الـدجى، والبدرُ إن غَمَـرا

مـا زلـتَ تسكنـني، والعيـنُ باكيةٌ ... إن مـرّ طيفُـكَ فـوقَ الحلـمِ أو عَبَرا

تبقى صديقَ الورى في صمتِه الوَلِه ... وحارسَ الذكرِ إن ضـاعَ المـدى وغَرا

فامنحْ نهاري نداكَ الطيبَ، انهمـرًا عـلى فـؤادي، وكـنْ للبـوحِ مُنتصرا

أنا ابنةُ الماءِ، إنْ أغضى على شَفَقي يـسـري هـواكِ، عـلى أوتـارِهِ سَكَرا

ويستفيقُ الندى، إن جئتَ في ولـهٍ، كـأنّنـا عدنـا مـاضٍ كان مُزدهِرا

يـا أيهـا الغـديرُ الساكنُ الحَلِمُ، ابـقَ الغـنـاءَ لنـا، والبوحَ والقمَرا

القصيدة العاشرة: عناق السنابل

تمشي السنابلُ في صدري وتخطفُني ... كأنـــها ومضَتْ في الحقـلِ مُبتَكـرِ

تُهــدي القصيدةَ أنفاسَ الزمانِ، وتُد ... ثـــرُ العبيــرَ على كفّـــيّ من كَثَرِ

أُصــغي لأغنيَــةٍ في الحقلِ ساطعةٍ ... تَشُـــدّني، ثـــمَّ تحنيــني إلى السَّحرِ

في كـــلّ سُنبلـــةٍ ذكـــرى أعـــانقُها ... كأنّـــها وجهُ جدّي، أو مدى بصـــري

تَتمايلُ الأرضُ، ماجَ الضوءُ من لهفٍ ... وغنّـــتِ الريـــحُ بالأسرارِ والضَّفَـــرِ

ما أبـــهى الحقـــلَ إذ تـــزهو سنـــابلُهُ ... كأنّـــهُ المهرجـــانُ الفـــاتنُ الخَفِـــرِ

تُهدي إلى الشمسِ أحلامَ البذارِ، وتُ ... عانـــقُ الغيـــمَ بالأشـــواقِ والعبَـــرِ

أهيـــمُ فيهـــا، ويهتـــزُّ القصيدُ معي ... وتنـــبتُ الـــروحُ في المنـــفى على وَتَرِ

مـــــا بيـــنَ سُنبلـــةٍ والعيـــنِ أمنيةٌ ... تشـــدو، ويَـــرقصُ فيها صوتُ مُفتَخَرِ

أنـــتِ السنابلُ يا حلمي، ويا قَسمي، ... ويـــا نـــداءَ الطفـــولاتِ التي اندثَرِ

تبقيـــنَ، ما ظلّ فينا الحبُّ مرتجفًا، ... رمزَ البقاءِ، ووشـــمَ الأرضِ والحَجَـــرِ

يا أنشـــودةَ الحقـــولِ الآنَ، يا ولـهي، ... أهـــواكِ عشـــقًا على التكوينِ مُنحدِرِ

كـــم قد سقينـــاكِ من دمعٍ على ظمأٍ ... فاخضرَّ منـــكِ النـــدى في ضوءِ مُفتقِرِ

تبقيـــــنَ في فَلَـــقِ الآمـــالِ زاهيةً ... وفي المدى سِفرَنا المنثورَ في السُّـــوَرِ

يا سُنبلةَ العمرِ، غافلتِ العواصفَ، لا ... زلـتِ الجمـــالَ الـــذي يبـــقى بلا عُذُرِ

فكَــمْ قَــطَفْنَاكِ بالأحلامِ مُبتَهِلينَ، حــتى غــدونا على الذكرى من النُّذُرِ

وكم نسجنا على خيطِ الرجاءِ دُمىً منـــكِ ارتــوتْ، ثم نامتْ فوقَ منحدَرِ

تبقينَ ما ظلّ فينا الحقلُ مندهشًا، والنخـــلُ مـن لهفةٍ يغفو على الشَّجَرِ

عناقكِ الآنَ يُحيي في الجراحِ صدى وكـــانَ فينـــا، ومـــا زالَ على خَطَرِ

فابقي السنابلَ في صدري، إذا انكسرتْ روحــي، وصبّي رجــاءً غيــرَ مُنْكَسِرِ

القصيدة الحادية عشرة: صمت الجبال

صمتُ الجبالِ إذا نادتْ مسامعُنا ... يَسيلُ في القلبِ أسرارًا من السُّوَرِ

تَبدو كأنّ بها الأرواحُ راكدةٌ ... تخفي الحكايا، وتُغري شوقَ منتظرِ

ترنو إليكَ، فتغشى القلبَ دهشتُها ... كأنها خَطَفَتْ من صمتِها القَدرِ

ما ناءَ في سُحُبِ الأعوامِ مُنحدرٌ ... إلّا وحُمِّلَ في أعطافِها الخبرِ

وقفتُ أنظرُها، والدهرُ مستترٌ ... ورحتُ أقرأها بالعزمِ والبصرِت

يا أيها الشامخُ الأعلى بمنكبهِ ... ما زلتَ تحملُ في جنبيكَ ما ازدهرِ

صمتُ الجبالِ جلالٌ ليس يفهمُهُ ... إلّا الذي سكنَ التأويلَ والنّظرِ

كم قد توارَتْ حكاياتٌ بها احتجبتْ ... عن الوضوحِ، وظلّتْ تنكرُ الصورِ

ما بينَ صمتِكَ والريحِ التي همستْ ... نشيدُ فطرةِ هذا الكونِ والعِبَرِ

فيك الوقارُ، وفي جنبيكَ ملحمةٌ ... مِن الصعودِ، ومن صبرٍ، ومن كدرِ

يا من وقفتَ أمامَ الريحِ مُتّزنًا ... كأنّما الحلمُ لم يُروِكَ بالوترِ

تبقى الجبالُ إذا الأيامُ مغفرةٌ ... وترتقي في دُجى الأحزانِ كالقِمَرِ

ما زلتَ تحملُ في الأضلاعِ قافلةً ... من المدى، والنّدى، والنّازفِ العُمرِ

وتستكينُ، كأنّ الصمتَ معتكفٌ ... في ظلّك الصارمِ الشادي على الشّجرِ

تهفو الطيورُ إلى قممٍ تراك بها ... فوق النداءاتِ، أعلى من مدى البصرِ

كـــأنّ فيـــك من الأرواحِ منزلـــةً تعلو، وتسكنُ في إحساسِ من عبَرِ

صـوتُ الجبالِ، وإن لم ينطِقِ الكَلِمُ، يبـقى النـداءَ الذي يخـلو من الغيَرِ

كـم ذا تأمّلـتُ أطرافَ المدى فَرأَتْ روحـــي سُكـونَكَ ملجًا صادقَ الأثرِ

تبـقى الجبـالُ إذا مـا الوَهمُ أرهقَنا مَعقـلَ صـدقٍ، وتـاريخٍ، ومفتخرِ

فامكثْ على الأرضِ رمزًا لا يُساورهُ شـكٌّ الخيـانـاتِ أو ألـوانُ مُعتَذرِ

القصيدة الثانية عشرة: لغة المطر

يا مُطـرُ الحلمِ، يا نبضَ السماءِ إذا ... تكلّمـتْ بالنـدى الأرواحُ فـانهمَـرا

تَهيـمُ في الأرضِ أنسـامٌ مؤرّقـةٌ ... إذا خطـوتَ، ونـارُ الشـوقِ قد سَكرا

يـا أوّلَ الدمـعِ إن جاعتْ مواسمُنا، ... وأعـذبَ الوصـلِ في قلبٍ إذا انفطرا

تُحـدّثُ التربَ عن سرّ البقاءِ، ومن ... تحـتَ الرمـادِ تُثيـرُ الزهرَ إن كَسَرا

تُبـلّلُ الخصـبَ في أعطافِ ذاكرةٍ ... حـتى يُفيـقَ مـن الآهـاتِ مـا غَمَرا

ما كـنـتَ مـاءً، ولكـن كنتَ مُنْبَعثًا ... من الشـفـاهِ التي صلّـتْ، ومـا نَظَرا

تـأتي فتُـحيي رُبـا ميتةٍ، ومضى ... منهـا الزمانُ، وما في القلبِ ما عَثَرا

ويستكيـنُ الغمـامُ الآنَ مـبـتسـمًا ... حـين انحـدرتَ على الأكوانِ مُنْهمِرا

كأنّـك الـوحيُ، لا صـوتٌ ولا لغةٌ، ... لكـنْ تـرنُّ نُبـوءاتٌ، وقـد ظَـهَرا

يـا لغـةَ الروحِ، لا تُنسى إذا ذُكرتْ ... أيـامُـنـا، أو تهـادتْ عبـرةُ السُّوَرا

قـد جئـتَ والحنـظلُ المرُّ استبدّ بنا ... فامسـحْ ببـرقِكَ هـذا الـهـمَّ إن غَفَرا

قد كان قلبي، كما الأحجارُ، منطفئًا ... فارتدَّ من دفـءِ سُحبِ العشقِ ما انكسرا

يا مطـرًا، كنتَ في الأسطورةِ انتظرًا ... وجئـتَ – والوقتُ موتٌ – تنقذُ العُمرا

نبـضُ الحيـاةِ الذي أخفاهُ قَسوتُنا، ... عـادَ بصوتِكَ يَستعلي، وقـد غَفـرا

كـأنّ فيـك دمـوعَ الأنبياءِ، وفي ... هـديـرِك الآنَ مـا يبكي وما سَمِرا

يــا مطــرًا، عــدْ علينـا مثلما وَلَـهَتْ فيـك الطفـولــةُ، فيك النخـلُ، والشَّجَرا

وامسحْ دموعَ الذين استسلموا عطشًا، واســقِ البســاتينَ نطــقًا كـانَ مُندَثَرا

فالحــرفُ ينهـضُ منـكَ الآنَ متقدًا، والشعرُ إن جاءَ من صمتٍ، فقد ظَفَرا

تـبقى، وتبقى دعـاءاتُ المساءِ، كما بقى التــراتيلُ فــوقَ الأرضِ، والسُّوَرا

القصيدة الثالثة عشرة: أسرار الزهور

في كــلِّ زهــرةِ وجـدٍ ســرُّهـا اندثـرا ... وفي عبيرِ شذاها، الحُبُّ قد نَضَرا

تـمشي الزهـــورُ على الآفاقِ ناعمةً ... كأنّها الحلمُ إن لامسْتِهُ سُوَرا

تُهــدي المــواسـمَ ما خبّأتْهُ من نَغَمٍ ... وتُرجعُ الدهرَ إنْ ضاعَ الذي ادّخرا

تُــغــني ورودٌ على أنــغــامِ نــافــذةٍ ... والفلُّ يهمسُ للأشواقِ إن سَمِرا

كــم وردةٍ بَـاحَــتِ الألـــوانُ رقّتُها، ... وفي خجلْ فتقَ الإحساسَ، وانشَطَرا

تُفــشي الزهـــورُ على الأرواحِ أغنيةً ... تجلو الغيومَ، وتُحيي الحزنَ إن عَسَرا

مــا مــن شــذىً عبقٍ مرّ النسيمُ بهِ ... إلّا ونبضُ الهوى في القلبِ قد حفرا

تســيرُ بــاهيــةً كالشوقِ في صمتٍ ... وتختبئُ في خيوطِ الضوءِ مُزدهِرا

تحكي الحنينَ بلونِ الوردِ إن انطفأتْ ... عنا المواويلُ، أو ذابتْ بنا الذِّكرا

تــرى الـورودَ إذا نــادتْكِ مـبتسِمًـا ... وجهَ الطفولةِ إنْ ناداكِ وانكشَفا

تـسقي الدمـوعُ نـداهـا، ثم تورقُ في ... أوجاعنا طُهرُ من ذابوا ومن عَبَرا

أسـرارُها صـمـتُ أوجــاعٍ مـلوّنـــةٍ ... كأنّها سِفرُ من عانى، ومن صَبَرا

مــا مــن يــديــكَ تُــلامسْ بتلةً، إلّا ... سالَ الهوى من شذاها مثلما انفجرا

تــروي الـزهـورُ حـكايـاتٍ بـألوانٍ ... تُهدي اللغاتِ لمن لم يُبصرِ السُّوَرا

تــبقى الــزهــورُ رسـالاتٍ مُـنَسّــقةً ... يُهديكَ معنى بها الحرفُ الذي ازدهرا

كــم مــن خميلــةِ عشقٍ كنتُ أعبرُها حتى انطفأتُ على الأزهارِ مُنبهِرا

يا زهرةَ الروحِ، إن طالَ المدى صَمَتًا فأنتِ نشيدُ دُموعي حينَ ينتثِرا

تـبقيــنَ في مــهـجتي ســرًّا أضــمـُّهُ وفي جراحِ الهوى إشراقُ من سَفَرا

يا أنشودةَ الأرضِ إن ضاقتْ بصيرتُنا، كوني لقلبيَ إن جفَّ الهوى، مَطَرا

القصيدة الرابعة عشرة: روحُ النخيل

يـا نخلـةَ الأرضِ، يـا طُهرَ البداياتِ يـا ضـوءَ روحٍ تسـامى فـوقَ عَثَراتِ
قـامتْ على الرملِ كالتاريخِ شامخةً مـا انحـنـتِ الريـحُ إلاّ في مـهابـاتِ
تسـري السنـابلُ في عينيـكِ راقصـةً ويـبتسمُ المـجدُ مـن فيـضِ النفَساتِ
يـا نخـلـةً، ضُمّـخي أيّامنا عبقًا من ذكرياتِ العُلى، والصدقِ، والآياتِ
مـا كنـتِ إلاّ مقـامَ العزِّ في وطنٍ يروي الفصولَ بساقِ الحلمِ في الغيماتِ
يا سيـدةَ الرمـلِ، يـا أنـثى تعانقُنا كأنّـهـا العشـقُ، مـمزوجًـا بعبَراتـي
تهـوي إليـكِ القـلـوبُ الآنَ مُبتهجًا كـأنّ في ظـلـكِ الآمـنِ نجاتي
مَـدّتْ إليكَ جذورَ الصبرِ، فانطلقتْ منكِ الحياةُ، ومنكِ العزمُ في النكبـاتِ
كم شاقني جذعكِ العالي إذا احتضنَتْ أيـدي الجـدودِ قلوبًـا دونَ آهـاتِ
تبقينَ في الأرضِ رمزَ المجدِ، إن هبطتْ كلّ القمـمْ، تبقَيـنَ السُّـؤددَ الراسي
تغـفـو العصـافيـرُ في كفيـكِ آمنـةً وتسكـنُ الـروحُ إن تاقـتْ لمرفـأ ذاتي
ما للنخيلِ سوى الصمتِ البليـغِ، إذا ضجّـتْ خطوبُ الزمانِ في اشتباكاتِ
يسـري النخيـلُ على أوتارِ ذاكرتي كـأنّـهُ الشـعـرُ في نهـرٍ من الآهاتِ
في كـلّ عِـرْقٍ سُـرى الآباءِ نلمسُهُ وفي السـعَفْ قـد بكـتْ أمّي بصَلواتي
يا نخلةَ الطينِ، لا زلتِ التي ارتفعتْ فـوق العُلى، دون أنْ تهـوي لحاجاتي

ما خفتِ جورَ العواصفِ، بل تصدّيتِ حتى غـدوتِ بيـانَ العـزمِ والـثـبـاتِ

تبقينَ، يا وهجَ صحرائي، ونبعَ هدىً إن ضـلّ دربي، تكوني أولى إشاراتي

يـا نخلـةً، أنـتِ في وجـدانيَ أنشودةٌ تمتـدُّ مـن تربـةِ الأجـدادِ لآتـي

تبقيـنَ رغـمَ الريـاحِ الحـرَّ، باسقةً كـأنّ فيكِ دعاءَ النخلِ في الممـاتِ

أنـتِ الحيـاةُ، وإنْ مـرّتْ بنـا مُحنٌ، أنـتِ البـدايةُ في كـلّ النـهـايـاتِ

القصيدة الخامسة عشرة: غناء السواقي

تغني السواقي على لحنِ الهوى طرِبا ... وتنثـرُ اللـحنَ في الأرواحِ مُـنسكِبـا

تسري كأنفاسِ من في القلبِ ذاكـرةٌ ... تـروي الحنيـنَ إذا ما الدمعُ قد هربا

كم قد مشيتُ على أنغـامِـها ولـهًا ... حتى ارتويتُ، وكانَ العشقُ لي سببـا

صـوتُ السـواقي إذا نـادتْ محبتُها ... يمـحو الجفافَ، ويشدو الحرفُ مُغتربا

مـا بيـن ضفّتـها الأشـواقُ منسكبةٌ ... وفي انـسيـابِ نـداها نُشـعلُ الطلبا

تـحكي لنـا عن رؤى كادتْ تغادرُنا ... فتستفـزُّ بـأشـجـانٍ لنـا النّـصبـا

وإن سكتـنَ، فـفي صمتـهنَّ أسئلةٌ ... عـن الغيـابِ، وعـن مـاضٍ لنـا ذهبا

كـأنّـها أمُّنـا الأولى، تُدلّـلـنـا ... حين المصائبِ، تُسقينا الرضى كُرَبـا

نـمشي إلى ظلّـها، ننسى بها تعبًا ... من الـدروبِ، وننسى الشوكَ والعطبا

يا لحـنَ ماءٍ، به الأشجارُ منتشيةٌ، ... وبـالنـدى يُـكتـبُ التـاريـخُ والكتُبـا

أنـتِ الحياةُ التي من عمقِ ذاكرتي ... تـهبّ فيّ، فـأرنـو للحُـلـمِ عـن كثبَا

كم من نداءٍ شجاني صوتُكِ الغَزِلُ، ... فـبـتُّ مـن طـربٍ في خـاطري لـهَبـا

أهـيـمُ فـيـكِ، وفـي قلبي تَشكُّلُكِ ... كـأنـكِ الشـعرُ مذبـوحًا ومُحـتـسـبَا

وكـلّمـا انهمرتْ أصـداؤكِ انفتحتْ ... أبوابُ روحيَ شـوقًـا تبتهـلُ الصَّـبَـا

تبقيـنَ في كـلّ فـجـرٍ آيـةً بَدأتْ ... مـنـكِ المـيـاهُ، وفيكِ العشقُ قد كَتَبا

يا فرحةَ الأرضِ إن صاحتْ سواقيها، كــم بلّــغـتْ لــغــةً للعــاشقيــنَ نَبَــا

أنتِ السكينةُ في همسِ الطبيعةِ، بل أنتِ المرافئُ إن ضاعتْ بنا السُّبُـــلا

فــلا تغيـبي، فــإنّ اللـحنَ منـــطفئٌ إن لم تكوني على الأشواقِ محتسبــا

تبقيــنَ فــيــنـــا عنـــاءً لا نُفسّـرهُ، وفي صدانا رجاءٌ بالندى اصطحبــا

القصيدة السادسة عشرة: فسيفساء الندى

فسيفســـاءُ النـــدى تسري على ورقي ... كـــأنّـــهـــا قـبـلـــةٌ مـــن روحِ مُـــفتَرِقِ

تلـــوّنُ الضـــوءَ فـــي أكمـــامِ زهرتِها ... وتُنـشـدُ الحـلـــمَ من صمتٍ ومن قَلَقِ

يـــا قـطـرةً سكبـتْ سرَّ السما بسَنا ... كـــأنّـــها ومـضـــةٌ مـن نـغـمـةِ الفَلَقِ

تُـمـســكُ الـــزهـــرَ بـآيـــاتٍ مُقدّسةٍ ... وتُـوقظُ الفـجـرَ في نَـــومٍ مـن الشَّفَقِ

كم من غصونٍ لها عطرُ الندى طَرِبٌ ... فـانسـابَ في خفـةٍ، كـالعاشقِ الغَلِقِ

في كـــلّ قطـرةِ وجـدٍ مـن تردّدِها ... نـبـــضٌ، ونـشـوةُ إيـقـــاعٍ بلا طَرَقِ

تـــروي الحكايا بلا صوتٍ، فتزرعُنا ... في كـــلّ إحســـاسِهـــا، في كـلّ مُنعِقِ

تحنو على الزهرِ، والأحجارُ صامتةٌ ... فـتـرتـوي بينَـها الأرواحُ في شَـفَـــقِ

كـــم قـد سـألنـــا نداها عن ملامحنا ... فأفصحَتْ، وبدتْ في الصدقِ كالحـدَقِ

تمشي بـخـفـةِ مـن نـامَتْ مواجعُهُ ... على خيالِ فتىً قد ضاعَ في الطُّـــرُقِ

تـغـفـو عـلـى ورقِ الزيتونِ باكيةً ... كـــأنهـا في انكســـارِ الضـــوءِ لم تَرِقِ

وتـسـتـفيـقُ، وفـي عينيْكِ ترجمةٌ ... للـحـلـمِ، للبـوحِ، للإشـــراقِ والرّقَـــقِ

إن غابَ وهجُ السما، كنتِ البهاءَ لنا ... تـجـلـو الجـراحَ بـنَـفْسٍ طيّبةِ العِرَقِ

مـنـكِ القـصيدةُ إن ناحتْ مواجعُنا، ... ومـنـكِ تُـــورقُ فـي الآلامِ أعـنُـقُـــكِ

تـبـقـيـنَ، يا نفحةً من جوهرٍ عطِرٍ، ... رمـــزَ الوفـاءِ، وتُرجـانَ السنـا الغسـقِ

مـا أجمـلكِ حـين تهمينَ على زهرٍ، كـأنّ فيـكِ سـلامَ الله فـي الـعـبَـقِ

إن مرّ طيفُكِ، غنّى العشبُ مُبتهجًا، واستبشـرَ الحقـلُ في نُطـقٍ بلا نَطَـقِ

تبقينَ، في صمتكِ الدافئْ، حكايَتُنا، وفي انهمـاللكِ صـدقُ الـوعـدِ والوثَقِ

يا فـسيفسـاءَ ندانـا، لا تَغيبي، فـ بـكِ انـمحى العَـطَشُ المخـتومُ بالقلَقِ

القصيدة السابعة عشرة: أنفاس التلال

أنـفاسُ تـلّتِنـا، في الصبـحِ، مُنْبعِثـهْ ... كـأنّـــها عِــطْـــرُ أرواحٍ مُـقـدَّسَـــهْ

تُهـدي الفـضـــاءَ ســلامًـا لا نُـفسّرهُ ... وفي الـمـدى تـسـكـبُ الأنغامَ منبسِهْ

تُصغي الطيورُ لصوتِ الضوءِ مندهشًا ... ويـسـتـفيـقُ صـدى الأيـامِ في نَفَسِهْ

يا من تهادَتْ على الأطيافِ هادئـةً ... تُهـدي الجـمـالَ لـمن يُصغي لِهَمْسَتِهْ

في كـــلّ مرتقَـبٍ كانـتْ تُعـانقُنا، ... وفي انـحـنـاءِ المـدى ما زالَ سِرُّهُ فِهْ

كم من حنينٍ تنامى في تلالِ دُجًـى، ... حتى تـنـفّـسَ فينـا الحلـمُ، وانبَعثَهْ

تـبـقى التـلالُ كـتـابَ اللهِ منفلِتًـا ... علـى السـطـورِ، بأحبارٍ من النّغَمَهْ

منهـــا نرى الكونَ في أفقٍ يُحاورتِهْ ... ريـحُ المســاءِ، وتغفـو فيـهِ نَسمتِهْ

كـم مـن شـهيـدٍ على جنبيكِ مبتسمٌ ... نـــامَ الرّبيعُ على ذكـــراهُ في صَمَتِـهْ

تـبـقيـنَ شـامـخـةً، لا الريحُ تُثنِيكِ ... ولا الجـــراحُ تـقـي أحـزانَـكِ النَّـدَهْ

وإن مـشـتْ فـوقـكِ الأقدارُ مُرهقةً، ... تهـتـزّ روحُـكِ، لا تنهـارُ في شدّتِـهْ

أنـتِ الجـبـالُ، ولكـن فيـكِ رقّتُنا، ... وفيـكِ همـسُ الطفـولاتِ التي اختَفَتْهْ

وفي الحـجـارةِ إن نـــادتْ توحُّدُنـا، ... وفي الصـدى لحظـةٌ تبكي لوَحدَتِـهْ

أنـتِ الـبـدايـةُ إنْ أودى بـنا سَفَرٌ، ... أنـتِ الـحقيقـةُ في أسـمى تـجلّيتِـهْ

ما بينَ تضاريسكِ الخضراءِ معزوفةٌ ... قـد قـدّسـتْ لغةَ الأرواحِ في نُغْمَتِهْ

تـبقيـنَ فـيـنـا إذا الأيـــامُ فـاجـأتِ، نصًّا من الضوءِ في ليلِ المحنْ كَتَبَهْ

يا أنفــاسَ التّـلّ، كم للروحِ من قبسٍ إذا أتَـيــتِ، فــلا شِــعــرٌ يُـعادلُكِ

تـبـقـيــنَ فـيـنــا نداءً ليـس يُـنـكرهُ إلّا الذي خانَ ضوءَ الأرضِ في فَتنِهْ

كوني التــلالَ التي بالشــوقِ نرقبُها، إنْ ضاقَ صدرُ المدى، أو نامَ في وَهَجِهْ

القصيدة الثامنة عشرة: همسُ الأوراق

تُــهــدي الأوراقُ للــعــشّــاقِ أغنــيــةً ... وتستفيقُ على الإيقاعِ والنَّغَما

تُصــغي لــهــا الريحُ من أشواقِ ذاكرةٍ ... فيها الحنينُ، وفيها الدفءُ مُلتثِما

كم من نسيمٍ روى في السطرِ سيرتَها ... فاهتزَّ في لحظةٍ صدقًا، وما انحسما

تتــلو القــصــائدَ عن وردٍ، وعن فَرحٍ، ... وعن بكاءِ الدُجى، عن نغمةٍ رُسِما

يــا ورقــةً مــن شــذا الأيامِ ناطقةً، ... تسري فتبعثُ في الأرواحِ ما احتُدِما

إنْ نادى الحرفُ، لبّتْ دون ما وجَلٍ، ... كأنها من دُروبِ الحلمِ قد قُدِما

هــمــسُ الأوراقِ تــاريــخٌ تُــدوّنُــهُ ... أناملُ الضوءِ في الآفاقِ مرتسِما

ما مرّ فوقَ ضفافِ الحرفِ عاشقُها ... إلّا وأزهرَ في أعماقِه نَدَما

يــا كــلّ وجدي، ويا أنغامَ مهجتِنا، ... هل تسمعينَ نشيدي حينَ ينكَدِما؟

ما زلــتُ أكتــبُ فيكِ الحلمَ مُزدهرًا ... وأنتِ تكتبنَ لي عمرًا وما انعدما

ورقةٌ أنــتِ من دفءِ النــدى، ومِنَ ... صمتِ المواويلِ إن طالتْ بنا الألما

فـيكِ اللغــاتُ التي خافتْ مفاتحُها، ... وفيكِ سِرُّ الحنينِ الملتوي كَلِما

كم قُلتِ: هاكَ دمي، والحبرُ سيّدتي ... نسجَ الخيالَ، فأهدانيكِ مُنْعَدِما

تــبقيــنَ أنــتِ إذا خــانتْ قوافيَنا، ... لغةَ الدُموعِ، إذا ما الحرفُ ما التزما

يا همسَ أوراقِ صدري، هل أُسلِّمُها ... للريحِ، أم أحتفي بالبوحِ مُتّهِما؟

تبقينَ فينا، إذا ضاعتْ خرائطُنـــا، دربًا، وصوتَ ارتجافِ الحرفِ حينَ رَمى

ما عدتُ أملكُ غيرَ الحرفِ أنظمُهُ، وأنفُسُ الروحِ بينَ القلبِ والقَلَما

تـبقيــنَ في كــلّ فجرٍ كنتُ أرقُبُهُ، وفيكِ أكتبُ ما قد كانَ مُلْتَهِما

القصيدة التاسعة عشرة: تراتيل الطبيعة

يـا أرضُ، يـا نَفَسَ الأزمانِ يا سَكني ... ويـا نـشيـــدَ الـمـدى، يا نورَ مُؤتَمَني

قد جئتُ أُهديكِ من وجدي تراتيـــلًا ... مـن كـلّ فـجرٍ صفا، أو دمعِ مُحْتَسِنِ

رأيتُ فيكِ الندى، في الغيمِ أغنيتي، ... وفـي الســواقي حـنينَ القلبِ والوَطَنِ

غنيـتُ فيـكِ سنابلَ الأرضِ مرتعِشًا ... وكـتبـتُ فـي جـذرِ زيـتـــونِكِ اليَمَنِ

يـا كـلَّ أنفـاسِ هذا الكـونِ مُـلهمةً، ... يـا بـسمـةَ الـزهـرِ، يـا آياتِ مُقتَرِنِ

أنـتِ التي كـلـما ضاقتْ بنا سُبُلٌ، ... فـتحـتِ فينـا دروبَ الـعشـقِ والمِنَنِ

فمنـــكِ غنّى الغديرُ العذبُ ألحِنتَهُ، ... ومـنكِ رقـصَ الهوى في نشوةِ الشَّجَنِ

أنتِ القصيدةُ، بل أنتِ التي صدحتْ ... في نـبـضِـنـا، من دجى التكوينِ للسُّنَنِ

فلا المـدى دونـكِ النسيانُ يحتملُ، ... ولا الحـنـيـنُ لـغـيـرِ الوحـــيِ يُفتَتَنِ

يـا نغمـةَ الروحِ، يا أوتارَ ملحمتِي، ... يـا دفـءَ فـجـرٍ بكى في رعشةِ العَلَنِ

ترنيمةَ الضوءِ في قلبِ الدجى حلمتْ ... أن تُنشـديـني، وكـانـتْ فيكِ لم تَهِنِ

كتبتُ فيكِ، وكانَ القلبُ مُشتعـلًا، ... وكـــانَ للحــرفِ جـرحٌ نابضٌ، سَكَنِ

من كلّ ما في الطبيعةِ من قصائدَها، ... نـسـجـتُ ديـوانيَ المـفـتـوحَ في زَمَنِ

فاذكُري حرفيَ العاشقَ إذا ابتعـدوا، ... إنّي كـتـبـتُ هـواكِ العـذبَ في كَفَنِ

وإن سألوا عن صدى صوتي فخبّريهم ... أن الطـبيعـةَ كـانـتْ روحـيَ الوسَنِ

من كلّ زهرةِ وجـدٍ كنتُ أقطفهـــا رجـــاءَ شـعـرٍ نـــدى، أو لوعةَ الحَزَنِ

تبقـيـنَ في دفتي، في كلّ مــفردةٍ، وفي القــوافــي، أنــا والمــاءِ في فِــتَنِ

ختمتُ فيكِ، وفيكِ البدءُ، يا أملي، فامـكثي دهـــري، يا أنقى الحُلمِ المُـزَنِ